المنفعة المادية
ليست غاية الحيـــاة

للأستاذ رشاد محمد محجوب

يخلط كثير من الناس بين الخير والفضيلة من جهة، وبين اللذة والنفع من جهة أخرى، فليس هناك من ينكر أن فى كل عصر وفى كل بيئة نجد أوامر ونواهى مندمجة فى الدين أو منفصلة عنه، وهى تختلف اختلافا كليا عن الوصايا القائمة على ملاحظة المنفعة والضرر المـادين، بل كثيرا ما يطلب من الانسان أو يطلب الانسان من نفسه تحمل ضرر مادى أو تضحية مادية فى سبيل مثل أعلى أو كمال روحى.

وكثيرا ما تغنى الخلقيون والشعراء بما للألم من خصب وكرامة بل من جاذبية، فقال (الفرد دى موسيه): "أحب جلال الالام الإنسانية"[1] وليالية ملأى بتمجيد الألم، وقد نستطيع بسهولة جمع ديوان من قصائد الألم ثم إن مئات من المشاهدات تدل على أن محبة الألم ظاهرة نفسية معروفة عند الزهاد والمتصوفين والمستشهدين اذا مابدا لهم الألم كوسيلة للاتصال بالله.

فمن الخطأ الفاحش أن تكون غاية الحياة المنفعة المـادية فإن فى هـذا سوء مشاهدة للأمور، إذ من المشاهد أن الانسان لا يبحث عن المنفعة المـادية فى كل أفعاله، بل هناك أفعال عديدة يفتدى المرء فيها الواجب بكل منفعة مادية أخرى.

وشهادة الضمير تظهر أن النفع يحرك فينا حاسة الإعجاب لا الاستحسان الخلقى، وإلا فلم نستحسن أفعال الأحرار المختارين وحدهم استحسانا خلقيا، ولا نستحسن أفعال غيرهم كذلك؟ فان المذياع والمسرة والآلة البخارية قد نفعت البشر نفعا لا يوصف، ومع ذلك فاننا لا نجد عاقلا يقدرها كما يقدر المحسنين من البشر ولا يستحسن أفعالها عين استحسانه لأفعال أهل المروءة والاستقامة. بل إن ما تحدثه فينا الآلات النافعة من الانفعال يختلف عما تحدثه فينا الأفعال الخلقية من الانفعال بقدر ما يختلف كل انفعالين غير متناقضين إذ الفرق بين انفعالنا بالرائحة الطيبة وعدالة زيد ليس أعظم من الفرق بين انفعالنا بمنفعة المذياع وتعدى عمرو. فلو كان النفع علة لكون الأفعال خلقية لوجب أن ننفعل بأعمال الآلات النافعة وأعمال البشر الخلقية انفعالا واحدا، ولكن انفعالنا بها مختلف من بعض الوجوه فالنفع إذن ليس علة الأفعال الخلقية.

وقد يعترض معترض بأن المقصود بالنفع انما هو النفع المقيـد بأفعال العقلاء لا أفعال غيرهم. وما الذى يضطره الى تقييد النفع بأفعال العقلاء، إن كان النفع هو علة استقامة الأفعال، والضرر علة عدم استقامتها. فان النفع والضرر هما فى أفعال البشر وأعمال الآلات ولكن تقييد المعترض النفع بأفعال العقلاء دليل واضح على الفرق الجوهرى بين الأفعال الخلقية والأفعال النافعة.

فشهادة الضمير تعارض هذا الخلط بين الخير واللذة والفضيلة والنفع. فان الخير والفضيلة معنويان، واللذة والنفع حسيان. وليس بين الخير وبين اللذة تطابق. فليس كل عمل نافع خيرا وفضيلة، وليست كل فضيلة نافعة أو لاذة. فمن الأفعال ما نسميه بأفعال الخير والنبل والجود والشهامة والبطولة، وما كنا لنسميها كذلك لو نظرنا اليها بعين المنفعة، ولكننا

1 "Aime la majesté de la souffrance"

نظرنا إلى الواجب والاخلاص وحب الخير والحقيقة والعدل . ومن الأفعال ما نسميه بأفعال الشر والدناءة والتحيز والجبن والخزى والإجرام ، لالتصاق هذه الصفات بها أولا ، وقيامها على أسباب الدناءة والشر ثانيا . والفعل الواحد من هذه الافعال تتضاعف درجاته خلقيا فاننا نكبر الفقير الذى يجود بالقليل ، ونضع قليله فوق الكثير من الغنى الذى يجود مما زاد عن حاجته . وقد نعجب بمهارة الرجل الذى يتوخى النفع ويتخذ الوسائل المؤدية لغايته ، ثم نحتقره من الوجهة الخلقية ، بينما نحن نقدر الخير أيا كانت نتيجة

وكثيرا ما يضحى الانسان بنفسه فى سبيل ذويه ، ولا شك أنه إذا أقدم على ذلك فهو لايتوخى من عمله نفعا ذاتيا . والأم تعطف على إبنها حتى إذا رأته سعيدا سعدت معه وليست غايتها من إسعاده أن تسعد هى بل أن يسعد هو فتكون سعادتها لاحقة لسعادته ونتيجة لها .

فحسن أن يضحى بالحياة فى سبيل الوطن أو الدين أو العلم أو أيما غاية كبرى . وهذه التضحية تجلب الثناء وأحيانا تثير الحماسة عند الناس جميعا . وقد قال الشاعر اللاتينى :

" تيقن أن المصيبة الكبرى إنما هى إيثار الذات على الشرف وفقدان أسباب الحياة من أجل الحياة ".

"Summun credi nefos animam Proefevre pudori et propter viton, vivendi Preders cousos".

فلو كانت غاية الحياة المنفعة المادية لما رأينا كل هذه التضحيات التى تفيض بها كتب التاريخ وتضيق عنها صحف الحياة الانسانية فى ماضى العصور وحاضرها .

بعد هذه التحليلات الفلسفية السهلة تتفق معى سيدى القارئ العزيز على أن " المنفعة المادية ليست غاية الحياة " . وجميل جدا أن يتم هذا الاتفاق بيننا فى عصر تقدمت فيه الآلات والأجهزة وتأخرت النفس والأخلاق .

والآن أترك لك التفكير فى استنتاج ما يمكن استنتاجه من غاية الحياة للانسان الكامل ، ولعلك تصل ان شاء الله إلى ما وصل إليه (ارسطو) من أن "الخير هو موضوع جميع الآمال" ، أى أن " الخير هو المقصود من الكل " على حد تعبير (ابن مسكويه) .

رشاد محمد محجوب

تم طبع هذه المجلة فى يوم :
١٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٣
(١١ من مايو سنة ١٩٤٤)
مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى

٢٥٠٠٠-١٩٤٣-١٢٧٢٤